

سياسة الممالك تجاه السودان (رؤية إستراتيجية تحليلية)

أستاذ - قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة الزعيم الأزهرى

أ.د. حاتم الصديق محمد أحمد

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان

د. عوض شبا

المستخلص:

الهدف من هذه الدراسة تقديم رؤية إستراتيجية تحليلية جديدة لسياسة الممالك تجاه السودان تتناول فترة مهمة وطويلة من تاريخ الممالك وعلاقتهم بسودان وادي النيل إمتدت لحوالي ستة قرون من الزمان ، والتي بدأت بشن سلسلة من الحملات العسكرية على المملكة النوبية المسيحية من بدايات سيطرتهم على السلطة في مصر نجحت إلى حد ما في إضعاف السياج الأمنى والسياسي للمملكة النوبية والوصول إلى مراكز القرار فيها، ثم بدأت مرحلة ثانية بأفول سلطانهم في مصر بظهور محمد على والياً على مصر من قبل السلطنة العثمانية في العام 1805م وفرارهم جنوباً ومحاولتهم إحياء فكرة بناء دولة في السودان . إعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي وتوصلت إلى عدة نتائج من أهمها أن الممالك لم يوفقوا رغم سعيهم الجاد والمستمر في تحقيق كامل أهدافهم الإستراتيجية والسياسية في السودان

The Mamluk Policy towards Sudan (Analytical Strategic Vision)

Hatim Elsiddig Mohamed Ahmed

Awad Sheba

Abstract:

The aim of this study is to present a new analytical strategic vision for the Mamluk policy towards Sudan that deals with an important and long period of the history of the Mamluks and their relationship with the Sudan of the Nile Valley spanning about six centuries, which began by launching a series of military campaigns on the Christian Nubian Kingdom from the beginning of their control of power in Egypt succeeded to To some extent, the security and political fence of the Nubian kingdom was weakened and its decision-making centers were reached. Then, a second stage began with the demise of their authority in Egypt, with the appearance of Muhammad Ali as governor of Egypt by the Ottoman Sultanate in the year 1805 AD, and their flight to the south and their attempt to revive the idea of building a state in Sudan. The study relied on the historical, descriptive, and analytical method and reached several results, the most important of which is that the Mamluks did not succeed despite their serious and continuous endeavor to achieve their full strategic and political goals in Sudan.

المقدمة:

تعتبر فترة المماليك - وهم مجموعة من الرقيق ، معظمهم من الأصل التركماني ظهوروا في العهد الأيوبي في مصر (1171-1250م) من اواسط اسيا استجلبوا بغرض الجندية ، وبعد ضعف الدولة الايوبية، سيطر زعماء المماليك على الحكم مستفيدين من التدريب الجيد لقواتهم وخبرتهم العسكرية ، وقد استمرت سيطرة المماليك العسكرية والإدارية لمدة ستة قرون استطاعوا من خلالها بسط نفوذهم وسيطرتهم على مصر والشام والحجاز (1) - ، الأكثر تأثيراً على مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية في السودان على مدى فترات تاريخية طويلة تزيد عن ستة قرون من الزمان وتحتاج لدراسات مفردة ومتعمقة لبحث جوانب هذه التأثيرات وفق رؤية

كلية وهي ما تسعى إليه هذه الدراسة وهو وضع إطار عام لإستراتيجية الممالك في علاقتهم بالسودان، كفرضية تاريخية ربما تنتج عنها دراسات تفصيلية في المستقبل، من خلال الإجابة على هذه الأسئلة التالية والتي قد تتفرع منها أسئلة أخرى :

- ماهي الرؤية الإستراتيجية الأساسية التي بني عليها الممالك سياستهم مع النوبة؟
- لماذا تكررت الحملات المملوكية على بلاد خلال ستة قرون ، أم هي في حقيقتها حملات تأديبية لإخضاع ملوكها متى ما تمردوا على ولائهم للسلطة المملوكية؟
- هل كانت هناك خطط بديلة للممالك إزاء المتغيرات السياسية في بلاد النوبة؟
- بعد زوال سلطان الممالك في مصر وفرارهم إلى السودان وحراكهم السياسي الكبير الذي لا يتناسب مع عددهم القليل. هل يمكن قراءتها في إطار إحياء لفكرة بناء دولة بديلة في السودان؟.
- إستخدمت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، مما قد يساهم في دعم فرضية هذه الدراسة التي إعتمدت على عدد من المصادر والمراجع والتي منها :
- المصادر العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى التي حققها مصطفى محمد مسعد وجمعها في كتاب واحد.
- كتابات الرحالة الأوروبيين الذي عاصروا حقبة قيام دولة محمد في مصر وتنكيله بالممالك وفرارهم إلى السودان وغزو محمد علي باشا للسودان عام (1820-1821م) وسجلوا هذه الأحداث، والرحالة الذين أتوا بعدهم وجمعوا روايات شهود العيان لهذه الأحداث.

وتم تقسيم هذه الدراسة إلي مبحثين أساسين، يتناول المبحث الأول علاقة الممالك بالمملكة النوبية ونتائجها ، ويتطرق المبحث الثاني لهجرة وفرار بقايا الممالك إلى بلاد النوبة بعد الضغوط التي مارسها ضدهم محمد علي باشا وتتبع جهودهم لإنشاء دولة جديدة في السودان. فضلا عن النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة.

وأخيرا نشير إلى أنه سيتم في هذه الدراسة مصطلح السودان الحالي كناطق جغرافي لأنها قد تعبر بصورة كبيرة عن الجغرافية السياسية للإطار الزماني للأحداث التاريخية للدراسة لما كان يعرف ببلاد النوبة مع الإشارة لاسم النوبة داخل سياقها التاريخي إذا إقتضت ذلك الضرورة التوضيحية لأن الدراسة غطت فترة زمنية طويلة وخاصة أن اسم السودان بدأ يتردد في عدد من الدراسات قبيل غزو محمد علي .

المبحث الأول: المماليك وبلاد النوبة:

عرفت المناطق الواقعة جنوب مصر في العصور الوسطى ببلاد النوبة وقامت فيها منذ منتصف القرن السادس الميلادي ثلاث ممالك هي : مملكة نوباتيا في الشمال وعاصمتها مدينة فرص ومملكة علوة في الجنوب وعاصمتها مدينة سوبا ، ومملكة المقرة في الوسط وعاصمتها مدينة دنقلا ثم اتحدت مملكتنا نوباتيا والمقرة في وقت لاحق لتكونا مملكة النوبة وعاصمتها دنقلا.

حملات المماليك على دنقلا:

بعد أن استولى المسلمون على مصر في العام 641⁽¹⁾ حاولوا مد نفوذهم جنوباً ولكنهم استصدموا بمقاومة كبيرة من النوبيين وبعد عدة حملات إنتهت بتوقيع إتفاقية شهيرة وهي إتفاقية البقط، والتي حكمت العلاقة بين الطرفين لمدة ستة قرون تقريباً.

كان تولى المماليك السلطة في مصر عام (1264م) بداية مرحلة جديدة حكمت العلاقات بين النوبيين والمماليك الذين قاموا بحملات عديدة على بلاد النوبة للسيطرة عليها واخضاعها لسلطتهم ونجحوا إلى حد كبير في ذلك⁽²⁾.

في عام (1265م) إحتل المماليك ميناء سواكن المنفذ البحرى المهم للمملكة النوبية على العالم وبهذا أحكم المماليك إغلاق تواصلها عبر الى عالم البحر الأبيض المتوسط عبر مصر ، فرد عليهم الملك النوبي داوود بالإغارة على مينائي سواكن وعيذاب ومهاجمة مدينة أسوان وأسر الكثير من أهلها . فقام السلطان بيبرس عام(1273م بإرسال حملة إلى دنقلا عاصمة المملكة النوبية⁽³⁾ لتبدأ صفحة جديدة - كما ذكرنا - من العلاقات بين الطرفين طابعها الحملات المملوكية المتكررة على دنقلا ومحاولة السيطرة عليها.

أصبحت مدينة دنقلا قبلة لحملات المماليك المتتالية عليها، ويبدو أن المماليك انتهجوا سياسة بديلة للسيطرة عليها بصورة غير مباشرة وذلك من خلال تعيين ملك نوبي موال لهم على عرش دنقلا . ووجد المماليك ضالته في الأمير النوبي شنكدة الذي لجأ إليهم طالباً مساعدتهم ضد عدوهم اللدود خاله الملك داوود بحجة إغتصابه الملك منه وأنه الأحق في ذلك على حسب زعمه ، فجرّد المماليك حملة كبيرة عام 1276م نجحت في الوصول لدنقلا وفرضت الجزية لأول مرة على المملكة النوبية ، وتم تنصيب الأمير شنكدة ملكاً عليها ونائباً للسلطان الممكولى على حكم المملكة بشرط أن يرسل نصف إيراد المملكة خالصاً للسلطان في مصر إلا أن هذا الوضع السياسي لم يرضى النوبيين فثاروا ضد الملك وقاموا بقتله في عام (1277م) وتعيين الأمير برك ملكاً عليهم⁽⁴⁾، وهنا تدخل المماليك مرة أخرى وتخلصوا منه ليتولى الملك الأمير سامون الذي حاول الإستقلال على السلطة المملوكية والتخلص من هذه التبعية عدة مرات مما إضطر السلطان قلاوون إلي إرسال حملتين إلى دنقلا في عامي (1287م و 1289م) لردع الملك سامون والذي خضع في النهاية لسلطته⁽⁵⁾.

من الواضح أن السياسة المملوكية لم تحظى بالقبول على المستويين السياسي والشعبي عند النوبيين فأستمر المماليك في ارسال حملاتهم إلى دنقلا لفرض نفوذهم السياسي وللقضاء على ثورات الأمراء النوبيين التحررية وفي نفس الوقت لدعم الموالين لهم ومنهم الأمير آبي⁽⁶⁾ في سنة 1304م تكرر نفس سيناريو الأمير شكندة حيث قدم الأمير أيبي إلى مصر طالبا مسانده للوصول للعرش فأرسل معه السلطان الناصر حملة إلى دنقلا أمضت ما يقارب العام بها لتوطيد حكم هذا الملك والذي قتل في النهاية وتولى الحكم بعده اخاه كرنبس بتأييد من السلطة المملوكية ولكنه انقلب عليها وإمتنع عن دفع الجزية عام 1316م⁽⁷⁾ يبدو أن السياسة التي إتبعها المماليك للسيطرة على مدينة دنقلا عاصمة المملكة النوبية ومقر ملوكها لمدة تزيد على قرن من الزمان لم تحقق أغراضها كاملة في إخضاع ملوك النوبة لمشيئتهم المطلقة وبالتالي الشعب النوبي، وربما كان إختلاف العقيدة سبباً في ذلك لأنهم كانوا يدينون بالمسيحية ولكن حدث تحول كبير بتولى حكم مملكة النوبة الملك عبد الله برشمبو عام 1317م) كأول ملك نوبي مسلم بدعم ومباركة السلطان محمد الناصر. وبرشمبو هذا أمير نوبي تربى في قصور المماليك وأعتنق الإسلام هناك وهو صغير، ولكن عندما عادت قوات السلطان محمد ناصر أدرأجها من دنقلا إلى مصر انفلتت الأوضاع مرة أخرى بمقتل الملك عبد الله برشمبو في نفس العام وظهور بني كنز الدولة -وهم من عرب ربيعة الذين تصاهروا مع ملوك النوبة -كلاعب رئيس ومطالبتهم بالحكم مستندين على نظام وراثة العرش عند النوبة الذي يعطى الحق في تولى العرش لإبن الأخت⁽⁸⁾، فتصدى لهم السلطان محمد الناصر بإرسال حملة إلى دنقلا سنة (1323م) وفي نفس العام عاد الكنوز للحكم بعد انسحاب الحملة واستقلوا بالمملكة عن المماليك الذين بدأوا يفقدوا نفوذهم تدريجياً، ولعل آخر محاولات المماليك حتى يتجدوا لهم موطأ قدم في دنقلا وليستعيدوا بعض سلطانهم، الحملة التي أرسلها السلطان الأشرف في ظل الفوضى السياسية التي سادت بلاد النوبة وذلك لمساندة أحد امراء النوبة ضد الكنوز وبنى عكرمة عام 1366م⁽⁹⁾.

من المرجح أن المماليك لم يريدوا أن يكونوا طرفا في الصراعات بين المكونات السياسية السودانية وأن همهم كان مركزا على الموارد الإقتصادية والبشرية وخاصة بعد قيام الممالك والسلطنات الإسلامية.

المماليك وإقليم درافور:

بعد تدهور وإضمحلال الممالك النوبية وقيام السلطنة السنارية تواصلت علاقة المماليك التجارية بسنار ودارفور، حيث كان المماليك في مصر يعملون على شراء الرقيق من سنار ودارفور بغرض التجنيد، وقد بلغ عدد الجيش السوداني عند أحد المماليك ألف مقاتل على درجة عالية من التدريب والتسليح⁽¹⁰⁾.

من الواضح أن إقليم دارفور كان محط انظار المماليك في مصر ، ففي عام (1795م) بعث مراد بك حاكم مصر في ذلك الوقت بجيش للسيطرة على إقليم دارفور وكان من ضمن هذا الجيش رجل يدعى أحمد كاشف المشهور بمعرفته للمدفعية وعلم الرياضيات ، وهو من جزيرة يونانية تسمى (زنتي) وتوفي في دارفور ، ويعتقد أنه أخ حسين بك كاشف ، وفي فترة الاحتلال الفرنسي على مصر (1798-1801م) قدم أحد المماليك يدعى (زنونيا) لإقليم دارفور ومعه عشرة رجال من المماليك وعدد كبير من الرقيق والجمال والأمتعة ، ومعهم أيضا مدفعين . وقد قام السلطان عبد الرحمن الرشيد بإكرامهم كما سمح لهم ببناء مبنى من الطوب المحروق يشبه القلعة المعروفة في مصر وقاموا بتسويره بسور عليه بابين ، كما قاموا بوضع مدفعين على فتحات سور المنزل المدفع الأول موجه ناحية منزل السلطان والثاني لحماية المنزل ، وبعد ذلك قرر المماليك القضاء على السلطان الرشيد بالتعاون مع رجل يدعى الفكي الطيب ود مصطفى وذلك من خلال ابن بنت الفكي مصطفى وهذا الشاب هو ابن السلطان (تيراب)، لكن وصلت أخبار هذه المحاولة للسلطان عبد الرحمن الرشيد الذي قام باستدعاء (زانونا) لوليمة في قصرة وتم اعتقاله وقتله ، ثم عمد السلطان للقلعة وهدمها على رؤوس من كان بداخلها⁽¹¹⁾ والملاحظ أن الإجراء الذي أقدم عليه السلطان عبد الرحمن الرشيد تجاه المماليك الذين كانوا في الفاشر يشبه ما قام به محمد علي باشا تجاه المماليك في القاهرة وهو ما عُرف في التاريخ بمذبحة القلعة حيث قام محمد علي باشا بدعوة المماليك في القاهرة لوليمة في قلعته وتم قتلهم وحرقتهم هناك وسوف نتطرق لها في علاقة محمد علي بالمماليك⁽¹²⁾.

تقييم عام للسياسة المملوكية:

إن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا التقييم العام هو: لماذا أصر المماليك على هذه السياسة والتي تمثلت في إرسال حملات تأديبية متكررة لمساندة وتأييد ملوك نوبيين موالين لهم دون التدخل المباشر في الحكم؟.

إن من أولى الملاحظات أن المماليك قاموا بحسم الجبهة الشرقية وقفل منافذ التجارة الخارجية للمملكة النوبية بإحتلال مباشر لمينائي عيذاب وسواكن ، وربما هذا يكشف لنا جانب من الفهم الإستراتيجي لعلاقة المماليك مع مملكة النوبة وذلك بإجبارها للتعامل مع مصر في تجارتها الخارجية وبذلك تسيطر علي موارد المملكة بشكل غير مباشر، وفي نفس الوقت لا تتحمل تكاليف توفير الحماية لهذه التجارة .

من جانب آخر فإن سياسة النفس الطويل والسيطرة غير المباشرة على المملكة النوبية قد أتت أكلها وذلك بنهج سياسة التصاهر مع ملوكها والتأثير الديني عليهم حيث اعتنق ملوكها الدين الإسلامي بدلا من المسيحية ولعل رواية عائلة الملك حسن كشكش وهم من آخر ملوك

دنقلا الذي حكموا في نهايات القرن السادس عشر الميلادي تلقى الضؤ على موضوع مهم لم يتناوله الكتاب وهو موضوع ماهرة ملوك دنقلا لسلاطين المماليك في مصر وكما أوضحنا فإن المماليك في مصر قاموا بحملات عسكرية متوالية على دنقلا، وخلال هذه الحملات تم أسر عدد من أفراد الأسرة الملكية في دنقلا، كما لجأ بعض الأمراء إلي مصر طلباً للدعم والمساندة من أجل الوصول إلي سدة الحكم أبان الصراع بين الأمراء النوبيين حول السلطة، ومن هؤلاء الأمراء الملك عبدالله برشمبو الذي تربى في قصور الممالك واعتنق الدين الاسلامي وتولى عرش النوبة عام 1317م بمساعدة السلطان محمد الناصر والي هذا الأمير النوبي وإلي السلطان محمد الناصر تنتسب أسرة كشكش الذين يزعمون في رواياتهم بأنهم أحفاد الملك عبدالله برشمبو وأنهم ناصرية قلاونية أي تربطهم علاقة تصاهر بالسلطان محمد الناصر، والسلطان قلاوون، ومن الراجح أن نتج عن هذا التصاهر وصول إمراء نوبين مرتبطين باصولهم مع المماليك للحكم على نظام توريث الحكم والسلطة في دنقلا الذي يمنح الحق لإبن الأخت في وراثة العرش⁽¹³⁾.

ونختم هذا التقييم كما بدأناه بسؤال ربما الإجابة عنها تقدم إضاءات جديدة لهذه التجربة السياسية الطويلة، وهو: هل هناك أسباب أخرى لهذه الحملات المتكررة لم تسعفنا بها المصادر؟ من المحتمل وجود أسباب اقتصادية وعسكرية لجلب الذهب والرجال. وفي نفس الوقت الإبقاء على المملكة النوبية بالقدر التي تحافظ على حدودها الجنوبية وتوفر لها الموارد مع جعلها ضعيفة ومالية لها بالقدر الذي لا يسمح لها بمهاجمة مصر وغزوها، بمعنى ان تكون حديقة خلفية للماليك يلجأوون إليها عند الحاجة. ولعل ذلك يظهر من ضم إقليم دارفور الذي تذخر بالموارد الاقتصادية والبشرية ولكن محاولات المماليك في التعامل مع الموضوع كانت أشبه بالمغامرة وذلك بالإعتماد على المقدرات الفردية لقاداتهم مما تسبب في فشل معظم محاولاتهم كما سيتضح عند تناولنا لجهودهم لإقامة دولة في إقليم دنقلا.

المبحث الثاني:

المماليك في دنقلا حلم الدولة ونهاية المطاف:

بعد تعيين محمد على باشا والياً على مصر في العام (1805م)، وبعد أن بدأت علاقته بالتدهور مع المماليك عمل على قمعهم والتنكيل بهم بصورة واضحة، وبلغ القمع والتنكيل قمته لهذه المجموعة في العام (1811م) بمذبحة القلعة المشهورة، ثم توالى بعدها عملية التصفية المخطط لها بإحكام ضد المماليك في مصر من قبل محمد على باشا، ونتيجة لهذا الجو المشبع بالقدر والتنكيل والتعذيب ضد المماليك هربت مجموعات منهم إلى بلاد النوبة أولاً حيث لحق بهم ابراهيم بن محمد على باشا واستطاع أن يلحق بهم هزيمة كبيرة في (قوز تمنه أو كشتمنه)، وبعد هذه المعركة فرت مجموعات المماليك إلى السودان تحت قيادة ابراهيم بك وهو أحد

قادة المماليك الذي فروا من مذبحه القلعة ، وعبد الرحمن بك ، وواصلوا زحفهم جنوباً حتى وصلوا دنقلا ، ومنها إلى قرية (حنك)* في العام (1811م) وقد قدرت اعدادهم بـ (300) فارس من المماليك البيض والكثير من العبيد من السودانيين المسلحين وقد بلغ مجموعة هذه القوات (600) رجل⁽¹⁴⁾

قام المماليك وهم في طريقهم جنوباً بمحاذاة الضفة الغربية لنهر النيل بنهب القرى التي مروا بها مثل قرى الدر ، ووادي حلفا ، ومناطق السكوت ، والمحس⁽¹⁵⁾.

المماليك في شمال السودان:

لم يكن التوغل المملوكي في شمال السودان بعد مذبحه القلعة الشهيرة ، غزوا عسكرياً ، ويمكن اعتباره نزوح لمجموعات مسلحة حاولت الفرار جنوباً خوفاً من بطش محمد على باشا ، وهي تعتبر أول قوة عسكرية خارجية تصل إقليم دنقلا في شمال السودان ، منذ سقوط مملكة المقررة المسيحية التي كانت قائمة في هذه المنطقة⁽¹⁶⁾.

بعد وصول المماليك إلى هذه المناطق تمكنوا من نهب منطقة أبريم* واستطاعوا القضاء على الأخضر واليابس ، كما قاموا بقتل حاكم أبريم* التركي ، ولحقت قوات محمد على باشا بالمماليك في هذه المنطقة ودارت الحرب بين الطرفين وذلك في (1227هـ/مايو 1812م) ، واستطاعت قوات محمد على أن تقصف أبريم بالمدافع ، وبعد هذه الهزائم تحرك المماليك ناحية أرقو التي تعتبر حاضرة ملوك دنقلا وفي الوقت نفسه مقرأً لمحمود العدلاناوي نائب ملوك الشايقية في المنطقة⁽¹⁷⁾ وكذلك عند وصول مجموعات المماليك إلى منطقة (حنك) وجدوا محمد كاشف من المحس في قتال محتدم ضد الملك طمبل ملك (أرقو) ، وقد حاول محمد كاشف استمالة المماليك من أجل القتال إلى صفه ، ولكن وقف المماليك في نهاية الأمر إلى جانب ملك (أرقو) وانحازوا إليه⁽¹⁸⁾. ولكن وقوف المماليك إلى جانب ملك (أرقو) أغضب محمد كاشف الذي قام بدوره بالاستنجد بمحمد على باشا ، وقد كان يقيم في (أرقو) في ذلك الوقت محمود العدلاناوي ، أحد نواب الشايقية في المنطقة وقد ذكر المماليك للعدلاناوي أنهم لا يرغبون في الاستقرار في دنقلا ووجهتهم الحقيقية سنار بغرض الاحتماء بها واتخاذها مستقراً لهم ، وبعد ذلك قام العدلاناوي بإكرامهم وقدم لهم العديد من الهدايا من الجمال والرقيق والمؤن والأغذية التي تعينهم على مواصلة طريقهم جنوباً نحو عاصمة الدولة السنارية⁽¹⁹⁾.

استمر بقاء المماليك في (أرقو) مدة شهر من الزمان وخلال هذا الشهر حدثت الكثير من المشاكل حيث اقدموا على قتل العدلاناوي ومعه عدداً من اتباعه*، ثم عملوا على بسط سيطرتهم على منطقة الشايقية وتخريب الممتلكات ، كما قاموا بالإستيلاء على كل الإيرادات في المنطقة ، وحدث أمر مهم في ذلك الوقت حيث انضم أحد ملوك أسرة الزبير وهي الأسرة الحاكمة في (أرقو)

إلى صف المماليك ضد الشايقية ، وأما عمه طمبل بن الزبير فقد شد الرحال إلى القاهرة بغرض طلب الدعم من محمد على باشا لمواجهة خطر المماليك ومجموعات الشايقية التي انضمت إليهم وأصبحوا مهدداً حقيقياً لسكان المنطقة⁽²⁰⁾. تطورت الأحداث بعد ذلك وزادت حدة المواجهات بين المماليك والشايقية ، وقد قتل عدداً كبيراً في مواجهات الطرفين ، ثم استقرت مجموعات المماليك بعد ذلك في بلدة (مراغة) التي تبعد مسافة ثلاثة أميال شمال مدينة دنقلا (العُرضي) واتخذوها عاصمة لهم ، كما قاموا ببناء المنازل الجميلة والمزركشة في هذه المنطقة⁽²⁰⁾.

الصراع بين المماليك والشايقية:

كان إقليم دنقلا خاضعة لحكم أسرتين وهما أسرة الزبير التي بسطت سيطرتها على الأجزاء الشمالية من المنطقة وأسرة (فنية) التي انفردت بحكم المناطق الجنوبية ، إلا أن السلطة الحقيقية في يد قبيلة الشايقية حيث كانوا يمتلكون القوة الكافية للإغارة على دنقلا وضواحيها وتخريب ممتلكاتها ، ونتيجة للهجمات المتكررة من قبل الشايقية على دنقلا وقع زعماءها اتفاقية مع الشايقية ، وذلك لكي يجتنبوا هجماتهم المتكررة ، وموجب هذه الاتفاقية تحصل الشايقية على نصف الدخل مقابل وقف الهجمات على مناطق دنقلا بعد هذا الاتفاق زاد نفوذ الشايقية في المنطقة ، وأصبحوا يقومون بجمع الضرائب بصورة راتبية حتى وصول المماليك من مصر إلى دنقلا⁽²²⁾.

شجع هزيمة العبدلاب على يد الفونج في أوائل القرن السابع عشر الميلادي قبيلة الشايقية على الامتناع عن دفع الخراج للعبدلاب ، كما تمردوا عليهم واستطاعوا هزيمة العبدلاب في النصف الثاني من ذلك القرن ، وبعد ان قويت شوكة الشايقية أصبحوا يهاجمون جيرانهم الدناقلة والمحس ووصلت قواتهم حتى مناطق السكوت شمالاً وجنوباً وصلت قوات الشايقية حتى مناطق الجعليين والعبدلاب وتواصلت غاراتهم على تلك المناطق وتمكن الشايقية من هزيمة ملوك (أرقو) وبحلول القرن الثامن عشر الميلادي قويت شوكة الشايقية في المنطقة ، وتمكنوا من امتلاك الخيول الجيدة والدروع ، وعند وصول المماليك إلى (أرقو) كانت مملكة الشايقية أقوى الدويلات في شمال السودان .

حاول المماليك السيطرة على مروى أهم مراكز الشايقية في شمال السودان ، ورغم فشل المماليك إلا أن الحروب تواصلت بين الطرفين ، و في شهر يناير من العام (1813م) تحرك المماليك مرة أخرى ناحية مروى وهم في هذه المرة أكثر عزيمةً واصراراً بغرض الاستيلاء عليها ، عندها التف الشايقية على قوات المماليك وهاجموا مراكزهم في الخندق ، وأرقو ونهبوا ممتلكاتهم ، وتحصن باقي المماليك بحصن (حنك) ، وفشلت بعد ذلك محاولة المماليك السيطرة على مروى⁽²³⁾.

في عام (1814م) دارت معركة أخرى بين المماليك والشايقية فقد الشايقية فيها مائة وخمسون مقاتل بينما خسر المماليك خمسون فقط من قواتهم ، وفي نفس العام تمكن القائد المملوكي والذي يدعى سليم بك الطويل من الوصول إلى بربر قادماً من مصر وقد استقر سليم الطويل في بربر ، وهناك ملاحظة حول المماليك الذين أصبحوا جزء من المكون المحلي في شمال السودان حيث عملوا على ترحيل زوجاتهم المصريات والشركسيات وتزوجوا من بعض الأثيوبيات والنوبيات⁽²⁴⁾.

المماليك في دنقلا:

بعد ان استقر المماليك في بلدة (مراغة) قاموا بتشديد معسكر أي (أوردي) باللغة التركية، وقد عُرف بأوردي المنفوخ نسبة لمحمد بك المنفوخ ، ويذكر انه اول من احتل هذا الموضع وارتبطت مدينة دنقلا العُرضي بالمماليك وقد استطاعت هذه المدينة الجديدة أن تتفوق على مدينة دنقلا (المدينة القديمة) ، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهت المماليك في دنقلا (العُرضي)، إلا أنهم استطاعوا ان يعملوا على تعمير تلك المناطق بغرض الاستفادة من إمكانياتها التجارية والزراعية والعسكرية ، وقد ساعدت الأموال التي أحضرها المماليك من مصر في تسهيل عملياتهم التجارية مع شندي رغم الأضرار التي لحقت بهم بعد حروبهم مع الشايقية ، واستفادوا كذلك من القوافل التجارية القادمة من مصر إلى شندي في شراء احتياجاتهم من ملابس وأحذية ، وبعد توطيد حكمهم في دنقلا عملوا على فتح طريق تجاري مباشر دنقلا وكردفان⁽²⁵⁾. وقد استفاد المماليك من هذا الطريق التجاري في شراء الرقيق بغرض الجندية وقد جمعوا منهم أعداد كبيرة ، الامر الذي يعكس مدى حاجتهم لهذه القوات بعد ان فقدوا العديد من رجالهم في صدامهم مع محمد علي باشا ومع بعضهم البعض ، كما ان المماليك لم يكونوا أول من استخدم الرقيق في الجندية ، كما قام المماليك بتشديد عدد من السفن الشراعية التجارية كما نجد أن المماليك بعد سيطرتهم على دنقلا سعوا إلى السيطرة على المراكز المهمة في شمال السودان ، ولذلك وقع اختيارهم هذه المرة على مروى حاضرة الشايقية ، ويمكن القول أن الهدف من السيطرة على مروى يتيح للماليك السيطرة على المزيد من الأراضي في شمال السودان مما يوفر لهم المزيد من الأموال والأتباع ويعوضهم ولو القليل عما فقدوه في مصر بواسطة محمد علي باشا . ولتوفير بعض المال قام المماليك في العام (1817م) بفرض ضريبة على القوافل التجارية المتحركة من دارفور نحو مصر ، وفي إحدى المرات تمكنوا من تحصيل (9000) دولار من قافلة قوامها (4000) من الأبل ، وقد ذكر المماليك لأصحاب هذه القافلة بأن الرسوم التي تم تحصيلها منهم هي عبارة عن رسوم عبور⁽²⁶⁾.

أسهم تراجع المماليك جنوباً واستقرارهم في - بلاد النوبة- شمال السودان في تأسيس دويلة صغيرة لهم رغم المعارضة الشديدة التي وجدوها من قبل السكان المحليين في ذلك الوقت ،

وعندما قويت شوكتهم وأصبحوا مهدداً حقيقياً لمحمد على باشا انطلاقاً من شمال السودان فكر في القضاء عليهم ، وعندما وصلت جيوش الباشا إلى تلك الناطق فر المماليك ناحية كردفان ودارفور ووداي (تشاد) الحالية ثم طرابلس في ليبيا⁽²⁷⁾. وكذلك لم تكن أجواء دنقلا تصلح مع العديد من المماليك ، حيث مات الكثير منهم جراء ارتفاع درجات الحرارة ، وحمى التيفوس ، وهي نوع من الحمى كان ينتشر في ذلك الوقت في منطقة دنقلا في موسم الصيف ، وقد كان المماليك بملابس الصوف عرضة أيضاً للتأثر بالحرارة لأن هذا النوع من الملابس لا يتناسب مع مناخ شمال السودان ، وللتعامل مع ارتفاع درجات الحرارة عمد المماليك إلى اتخاذ أطواف عائمة على النيل يقضون فيها فصل الصيف⁽²⁸⁾.

استمر المماليك جاهدين في توطيد أركان دولتهم الجديدة في دنقلا رغم الظروف المناخية القاسية في السودان وفي ظل بيئة سياسية محتقنة وغير مستقرة وكان لفشلهم في خلق تحالفات حقيقية مع الكيانات السياسية والاجتماعية في السودان وتعجلهم في إيجاد موارد مالية كبيرة بمحاولة السيطرة على الطرق التجارية وفرض الضرائب والرسوم على القوافل التجارية خاصة مع مصر مما لفت انتباه محمد على لخطورتهم في المستقبل إذا تمكنوا من إقامة دولة قوية في السودان فكان القضاء على المماليك من أسباب غزوه للسودان عام (1820-1821م) ليكتب آخر الأسطر في التاريخ السياسي للمماليك.

الخاتمة:

قدمنا في هذه الورقة عرضاً عاماً وموجزاً لرؤيتنا للإستراتيجية التي بنى عليها المماليك سياستهم مع السودان خلال فترة طويلة إمتدت لحوالي ستة قرون ، ولعل طول هذه الفترة من الدواعي التي جعلتنا لا نتناول التفاصيل والتي تحتاج لدراسة موسعة نأمل أن تتمكن من إعدادها لاحقاً بإذن الله تعالى. وقد خرجت هذه الورقة بعدد من النتائج والتوصيات التالية:

النتائج:

1. مارس المماليك سياسة النفس الطويل مع بلاد النوبة اعتمدت على السيطرة على الموارد الإقتصادية والبشرية دون التدخل المباشر في الحكم.
2. إغلاق منافذ التجارة الخارجية بالسيطرة المباشرة على موانئ البحر الأحمر .
3. نجح المماليك في الاستفادة من الصراع على السلطة بين الأمراء النوبيين في التدخل في شؤون الداخلية وإستمالة بعض الإمراء لتفويض إستراتيجيتهم نحو بلاد النوبة.
4. بعد فقدان المماليك سلطتهم السياسية في مصر بعد ظهور محمد على باشا فروا جنوباً إلى بلاد النوبة والاحتماء بها.
5. حاول المماليك بناء دولة ظهيرة في دنقلا ولكن قلة عددهم وتسارع الأحداث السياسية

وفشلهم في خلق تحالفات حقيقية مع الكيانات السياسية والاجتماعية عاق تحقيق حلمهم.

6. من ضمن السياسات التي استخدمها المماليك مع ملوك النوبة مصاهرتهم بغرض الوصول لعرش النوبة بالاستفادة من نظام التوريث الذي يعطى الحق لإبن الأخت في وراثة العرش.

7. سياسة المماليك للسيطرة على تجارة القوافل مع مصر وفرض الضرائب والرسوم عليها عجل بحملة غزو محمد علي للسودان. خوفا من نجاح المماليك في إقامة دولة تعيق جهوده في الحصول على الذهب والرجال.

التوصيات:

تعد فترة علاقات المماليك بالسودان الأكثر طولا وتأثيرا - كما أشرنا - لذا تحتاج للمزيد من الدراسات نقدمها في نقاط كتوصيات لدراسات مستقبلية وهي:

1. عمل دراسات مفصلة للآثار الاقتصادية والاجتماعية لسياسة المماليك تجاه السودان.
2. أهمية الساحل السوداني والبحر الأحمر بالنسبة للمماليك.
3. موقف السودانيين تجاه السياسات المملوكية.
4. إعادة تقييم جهود في إقامة دولة ظهيرة في دنقلا وربطها بالسياسة المصرية تجاه السودان قديما وحديثا.
5. دور المماليك في عرقلة غزو محمد علي للسودان وخاصة أن هناك إشارات بأن المماليك هم وراء قتل وحرق قائد الحملة إسماعيل بن محمد علي باشا في شندي.
6. محاولة المماليك ضم إقليم دارفور هل تم من خلال خطة عامة أم هي مغامرات فردية من قادة المماليك.
7. دراسة تكرر ظاهرة القضاء على قادة المماليك وقتلهم بطريقة واحدة من خلال دعوتهم لمأدبة طعام.

الهوامش:

- (1) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ، ص 147. جامعة الخرطوم، دار التأليف والترجمة والنشر، 1975م.
- (2) عوض أحمد حسين شبا، دنقلا والدناقلة، ط ١ ، الخرطوم، 2008م ، ص 43-46.
- (3) المقرزي (ت 845 هـ 1445م)، أحمد بن علي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، في : مصطفى محمد مسعد ، المكتبة السودانية العربية (مجموعة النصوص و الوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى)، (الخرطوم ، 1972م)، ص 324 - 331.
- (4) مصطفى محمد مسعد، الإسلام في النوبة في العصور الوسطى- بحث في تاريخ السودان وحضارته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، (القاهرة:مكتبة الأنجلو المصرية، 1960م)، ص 152-153.
- (5) المقرزي، المصدر السابق، ص 333 - 339.
- (6) المصدر السابق ، ص 340-341.
- (7) النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب ف ص 228 - 320
- (8) نفس المصدر ، ص 229-230.
- (9) المقرزي، المصدر السابق، 347 - 348.
- (10) أ.أي. روبنسون ، الممالك في السودان ، (ترجمة) بدر الدين حامد الهاشمي ، السودان في رسائل ومدونات ، 2012م ، ص 1-2.
- (11) المرجع نفسه ، ص 3.
- (12) المرجع نفسه ، ص 4.
- * قرية حنك تقع جنوب الشلال الثالث وتعتبر الحد الفاصل بين الأتراك والفونج ، وذلك بعد الحرب التي دارت بين الطرفين في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي ، وقد عرفت المنطقة الواقعة إلى الشمال من قرية (حنك) عند الأتراك وبربرستان أو بلاد البرابرة ، (أنظر: يوسف حسن ، دراسات في تاريخ السودان الحديث ، مرجع سابق ، ص 156).
- (13) عوض شبا، العائلات الملكية المقرية في دنقلا العجوز من خلال الروايات الشفهية (عائلة كشكش أهودجا)، مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، ع 17.
- (14) و.نكولز ، الشايقية ، (ترجمة) عبد المجيد عابدين ، شركة دار البلد ، للطباعة والنشر ، الخرطوم ، 1999م، ص، 27-28..
- (15) جون لويس بوركهارت ، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان (1784-1817م)، دار كنوز للنشر، القاهرة، 2012م، ص 43.

- (16) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ، مرجع سابق ، ص 155.
- * يوجد بمنطقة أبريم في شمال السودان حصن يقع فوق تل صخري يرجح أنه من أيام الرومان ، تمكن السلطان سليم من السيطرة عليه في مطلع القرن السادس عشر الميلادي وانزل فيه حامية من (البوشناق) وقد لجأ اليه المماليك بعد هزيمتهم في مصر وتمكن ابراهيم باشا بن محمد على باشا من طردهم منه .
- (17) يوسف فضل حسن ، مرجع سابق ، ص 155.
- (18) و.نكولز ، الشايقية ، مرجع سابق، ص -27 28.
- * تشير بعض الروايات إلي أن محمود العدلاني مع عدد من الفرسان الشايقية كان ملازما لخاله ملك أرقو طمبل السابع بن عبدالدائم لنصرته في ابان التنازع على السلطة في أرقو ثم عاد أدراجه إلي منطقتة ثم الحلفاية بعد انتهاء الصراع ولم يغتاله المماليك (لمزيد من التفاصيل، راجع: عوض أحمد حسين شبا، خلفاء مملكة المقرة، الخرطوم، ٢٠١٢م).
- (19) المرجع نفسه ، ص 28.
- (20) المرجع نفس ، ص 28-29.
- (21) و.نكولز ، مرجع سابق 29.
- (22) نسيم مقار، الرحالة الأجانب في السودان (1730-1851م)، مركز الدراسات السودانية ، القاهرة، 1995م ، ص 43.
- (23) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ، مرجع سابق، ص 157-158.
- (24) نسيم مقار ، مرجع سابق ، ص 44.
- (25) أ.أي. روبنسون ، مرجع سابق ، ص 5.
- (26) يوسف فضل حسن ، مرجع سابق ، ص 160-161.
- (27) أ.أي. روبنسون ، مرجع سابق ، ص 6.
- (28) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ، الجزء الأول ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، 1975م، ص 145.
- (29) و.نكولز ، الشايقية ، مرجع سابق، ص 29.